قراءة في ومضة "وجع" لصبري حسن

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

سأتناول في هذه المقالة القصيرة ومضة "وجع" للمبدع المصري صبري حسن، وهي ومضة مروية بضمير المتكلم وتكثر فيها الأفعال التي تنم عن حركة في مجال السرد وانتقال من جانب لآخر من جوانب الحدث الذي تقدمه لنا هذه الومضة بطريقة سلسلة ومرنة وانسيابية. وها هو نص الومضة:

وجعْ

فكرتُ أن أكتبَ، قررتُ أن أبكي... ملأتُ القلمَ دمعاً... وخططتُ حروف اسمك.

هذه ومضة جيدة مروية بضمير المتكلم. هناك تفكير يقود إلى فعل: التفكير في الكتابة يوصل الراوي إلى قرار البدء في الكتابة، ولكنها كتابة من نوع خاص، فيبدو أن مصدر البكاء أو الشخص الذي يريد أن يبكي على صدره الراوي غائب أو راحل لأي سبب كان، لكنه مفقود في حياة الراوي، ومن هنا يتحول البكاء إلى كتابة كنوع من

التطهير لنفس الراوي من أوجاعه وأحزانه ومما يثقل على صدره ويجعله لا يجد إلا الكتابة وسيلة للتخلص من هذا الثقل الذي يقهره.

والجملتان الأولى والثانية من نص هذه الومضة متوازيتان على مستوى التركيب، فكلاهما مكونة من فعل ماضٍ (بضمير المتكلم على لسان الراوي المشارك) + أن + فعل مضارع منصوب (على لسان الراوي المتكلم الذي يقوم بالفعل أيضا). ومن الملاحظ أن الفعلين الأوليين في التركيبين يمثلا حدثا ذهنيا تحقق بالفعل (التفكير واتخاذ القرار). أما الفعلان الآخران فهما فعلان في حالة كمون لم يتحققا بعد لأنهما مسبوقان بـ "أن" التي تجعلهما مازالا حالة في الذهن لم تخرج إلى حيز الوجود بعد. وكون الجملتين متوازيتين تركيبيا يجعلنا ننظر إلى أن فعل الكتابة مساوٍ لفعل البكاء، وكأن الكتابة هنا كتابة جنائزية أو كتابة تسعى للتطهر من الوجع والألم والعذاب، وكأن الكتابة/البكاء عمل إيجابي لا يقتصر على مجرد القول وإنما يحقق النتيجة المرجوة منه ساعة القيام به.

لكن الفعل "ملأتُ" لا يناسب هذا المقام، فمن المفترض أن الدمع يفيض تلقائيا وبالتالي من الأفضل استعمال فعل يدل على ذلك مثل "امتلأ القلمُ دمعا"، فالقلم هو الذي سيكتب والدموع ليست تحت إرادة الراوي كي يملأ بها القلم. وفي كل الحالات، يتساوى الدمع والحبر هنا

ويقوم كل منهما بوظيفة الآخر ودوره في حياة الراوي. فالدمع إخراج إلى حيز الوجود/التنفيس/التطهر لما هو موجود/مكبوت/محبوس داخل ذات الراوي وصدره، الأمر الذي يُحدث أثره العلاجي/الاستشفائي، وكأن الراوي يهم بأن يفرغ كل ما يثقل على قلبه وصدره وعقله.

وتأتي الجملة الأخيرة لتكشف لنا عن الغائب/الراحل/المفقود، وكأن فعل الكتابة/البكاء ينعي فقدان/ضياع المخاطب هنا والذي لا نعرف إن كان مذكرا أم مؤنثا لأن الكاف في "اسمك" بدون علامة فوقها أو تحتها تدل على نوع المفقود/الضائع/الغائب. ويجعلنا فعل الكتابة في بداية الومضة نظن أن الراوي سيسرد ما حدث مثلا أو ما تسبب في بكائه، ولكننا نكتشف أنه يكتفي برسم حروف اسم المخاطب وكأنه يرسم المخاطب ذاته ويستحضره على الورق أمامه بدون عتاب أو لوم أو جلد للذات، فحضور الاسم/المخاطب في حد ذاته كفيل بتطهر الراوي مما يعانيه، وكأنه لا يتمنى إلا حضور المخاطب أمامه حتى ولو بشكل رمزي . وفعل البكاء ذاته يوحي بأن الراوي مسئول بشكل أو بآخر عن تضييع المخاطب هنا.